

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

Contents

2	مناقشة هادئة لأطروحات الدكتور عبد الوهاب المسيري:
2	إنكار فكرة المؤامرة:
3	التعامل مع اليهود كجماعات تتشكل حسب الدول (البيئة) التي يتواجدون فيها.
3	إنكار الهوية الدينية لليهود.
4	نفي القول بأن لليهود صفات مشتركة.
7	البعد عن الوحي كتاباً وسنة!
8	قضايا خارج سياق الزمان والمكان.
10	المعركة مع اليهود:
11	أدوات الانتشار.
12	الفائدة في التفاصيل:
13	من يخاطب المسيري ورفاقه؟
14	التوسط بين العلمانية والصحة:
18	شروط النهضة عند المسيري والمتحمسين!

مناقشة هادئة لأطروحات الدكتور عبد الوهاب المسيري:

محمد جلال القصاص¹

عُني الدكتور عبد الوهاب المسيري بتفسير ظهور اليهود في السياسة الدولية، وعُني، كذلك، بتقديم رؤية نقدية للمادية الغربية، وظهرت قضية ثالثة، في إطار فض الاشتباك بين العلمانية والرافضين لها، وهي العلمانية الجزئية. وأحاول في هذه الورقات تسجيل عدد من الملاحظات، على هذه القضايا الثلاث، في هيئة نقاط على النحو التالي:

إنكار فكرة المؤامرة:

سواءً من اليهود أم من غيرهم ممن كرهوا ما أنزل الله. ويشتد في هذا الأمر بدعوى أن فيها تضخيم للعدو وتحقير للذات، وبدعوى أننا لو سلمنا بوجود المؤامرة، وخاصة المؤامرات الكبرى، لوجب علينا أن نستسلم لهذا الذي يمكر مكرًا كبيرًا. وكأن القول بوجود المؤامرة يستلزم القعود والاستسلام!!

والمؤامرة من قبل الخصوم حق ذكره الله العليم الخبير في كتابه، يقول الله تعالى ذكره: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (الطارق: 7)، و يقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (إبراهيم: 46). وفي سياق بيان ما يدور بين الملأ (النخبة) والأتباع حين يلتقون يوم القيامة يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ أُسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُؤِ الْبَلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُؤُنَا آدَادًا﴾. فالقوم يمكرون، مكرًا تزول منه الجبال، مكرًا كبيرًا، وهذا يقول: لا مكر.. لا مؤامرة.

¹ دكتورة في العلوم السياسية- علاقات دولية. جامعة القاهرة.

التعامل مع اليهود كجماعات تتشكل حسب الدول (البيئة) التي يتواجدون فيها.

وهذا يعني إنكار وجود صفات عامة للشخصية اليهودية. والله العليم الخبير في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يتحدث عن اليهود بصيغة العموم.. وبصيغة المضارع التي تفيد الاستمرار. وتأمل: ﴿وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾، ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾، ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾

﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّخْتِ﴾ ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾، ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

ففي القرآن الكريم تعميم في صفات اليهود. وكذلك تعميم في حال الأمم التي أهلكت بعداب من عند الله كشمود قوم صالح، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهُ فَادَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسْوَلَهَا ﴿١٤﴾﴾ ومعلوم أن الذين أفسدوا فيها كانوا تسعة فقط ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾، ومعلوم أن الذي عقر الناقة واحد فقط ﴿إِذْ أَبْعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾﴾ الشمس: ١٢. فالعامة تبع للنخبة (الملا) والعامة تسير خلف النخبة بحثًا عما تشتهي، فهم (العامة) مجرمون من طريق آخر². نعم طال العذاب الجميع، حتى الذي كان في الحرم أصابه ما أصاب قومه حين خرج من الحرم، وتلك التي فرت مزعورة مع بداية الأيام الثلاثة فُضي عليها في مكانها (خارج مدن صالح) حال القضاء على قومها.. عوملوا كلهم كفاعلين، والتفرقة تكون في التعاملات الفردية كأداء الدين !!

إنكار الهوية الدينية لليهود.

من الأخطاء الشائعة في أطروحات المسيحي تعامله مع اليهود، وخاصة في فلسطين، على أنهم جماعات وظيفية أنشأتها دول الاحتلال الغربي من أجل التخلص من اليهود في أوروبا، ومن أجل تكوين كيان موالٍ لهم في قلب المنطقة العربية يحول دون ظهور قوة عربية، أو إسلامية، تمنع الغرب من الحصول على الموارد الطبيعية وفي مقدمتها الطاقة اللازمة لصناعته، وتسهيل وصوله للأسواق اللازمة لبيع بضائعه، يقول: الغرب

² فصلت في هذا في بحث السيرة.

مندفع بتحقيق مصالحه المادية فقط. بمعنى أنه ينكر الهوية الدينية لليهود، ويصرح بهذا في كثير من كتاباته ونقاشاته.

وبقليل من التأمل نجد أن "المصلحة" تتشكل بناءً على منظومة القيم، فكل واحدٍ مصالحه حسب عقائده. فقد كان الناس في الجاهلة ينفقون أموالهم وأوقاتهم وربما دماءهم بحثًا عن السمعة والذكر الحسن؛ وفي عهد النبي، صلى الله عليه وسلم، وصحابته، رضوان الله عليهم، كان يبحثون عن عطاء الله ورضوان الله، وانظر إلى ما وصفهم الله به في أكثر من موضع من كتابه الكريم: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾. وحين سيطرت العلمانية المادية تحرك الناس خلف أهداف مادية.. استهلاكية. ولذا فإن مقولة "المصالح تتحكم في السلوك" مقولة قاصرة لا تصلح لتفسير سلوك الإمبريالية الغربية بشكل جيد، ولا تصلح، كذلك، لتفسير سلوك الأفراد بشكل دقيق. فخلف المصلحة منظومة قيم هي التي جعلت المصلحة في المقدمة؛ والمقولة الأصح لتفسير سلوك الدول الغربية في العلاقات الدولية هي "الاستحواذ على أسباب القوة والنفوذ". هذا حال الموجة الثانية من الغزو الغربي لبلاد المسلمين. وهي الموجة العلمانية التي جاءت بعد تراجع سيطرة الكنيسة وانتهاء حرب الكنيسة على العالم الإسلامي (الحملات الصليبية). فالعلمانيون من العصر التجاري (الميركانتي)، مرورًا بنهب وتخريب بلاد المسلمين في أفريقيا وآسيا وشعوب أمريكا اللاتينية إلى يومنا هذا، وهم يتحركون لهدفٍ رئيسي وهو السيطرة على أسباب القوة والنفوذ. وحين سيطرت الولايات المتحدة على قيادة العالم بعد "الحرب الثانية" أحدثت شيئًا جديدًا لم يعرف من قبل، وهو جعل الحفاظ على أمنها هي هدفًا لغيرها. ومن قبل كانت الدول الكبرى (الإمبراطوريات) تحاول هزيمة خصومها وفرض إرادتها على من تهزمهم، أما هذه فممنذ اضطلعت بقيادة العالم وهي تفرض الحفاظ على أمنها هي هدفًا لغيرها من الدول، ويظهر هذا الهدف في السياسة الخارجية تحت مسمى "الحفاظ على مصالح الولايات المتحدة". وبدهي أن السيطرة على أسباب القوة والنفوذ يؤدي إلى فرض التبعية على غيرهم في جميع مجالات الحياة: السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والعسكرية.

نفي القول بأن لليهود صفات مشتركة.

يشدد المسيحي في نفي أن لليهود صفات مشتركة، ويزعم أنهم ليسوا كيانًا واحدًا، وأنهم جمعات يتشكلون حسب البيئة، ويستأنس بكتابات جمال حمدان، وهذا يتنافى تمامًا مع صريح القرآن الكريم، فلم يكونوا في

عهد النبي، صلى الله عليه وسلم، كياناً واحداً، بل كانوا جماعات (قينقاع، والنضير، وقريظة، ويهود خيبر، ويهود وادي القرى، ويهود فدك، بخلاف يهود اليمن)، وكانوا متناحرين إلى حد الاقتتال، والتحالف مع العرب ضد بعضهم بعضاً، فقد كانت قريظة والنضير مع الأوس وقينقاع مع الخزرج وهذا صريح في نص القرآن الكريم ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فِرْيَاقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْلُدُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتُوْهُمْ بِبَعْضِ الْكُتُبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وحين غدرت قينقاع وأخرجها الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم تنتصر لها أخواتها من يهود مع كثرة عددهم ووفرة عتادهم مقارنةً بالمسلمين يومها. وكذا حين غدر بنو النضير، وحين غدر بنو قريظة لم تتحرك ألوف المقاتلين في خيبر ووادي القرى وفدك لنصرتهم، وذات الشيء مع خيبر حين غزاهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأورثه الله أرضهم وديارهم وأموالهم. والمقصود أنهم كانوا في عهد النبي، صلى الله عليه وسلم، جماعات لكل جماعة سياق خاص بها ومختلفون فيما بينهم، بل كان حالهم حال نزول القرآن الكريم أسوأ من حالهم اليوم، واستمروا على ذلك: (وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدُوتَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (المائدة: 64)، فلم يتحدوا ويتآلفوا فيما بينهم كما هم اليوم. وهم على هذا الحال وصفهم العليم الخبير بصفات مشتركة. وكانوا (في عهد النبي صلى الله عليه وسلم) منحرفين عن دينهم كما هم اليوم³، وكانوا تجاراً يبحثون عن مصلحتهم الخاصة في بيع أدوات الخنا والفجور (الخمور والبغاء) وأدوات الحرب (السلاح) كما هم اليوم⁴. كل ما هو موجود في يهود اليوم كان موجوداً فيمن نزل فيهم القرآن الكريم من اليهود، ومع ذلك وصفهم العليم الخبير بالهوية الدينية (يهود) لا كجماعات مستقلة. ومما يؤكد على أن يهود الأوس كيهود اليوم أن العليم الخبير، سبحانه وعز وجل، وصفهم بصيغة المضارع التي تفيد الاستمرار، وتأمل: (وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا) (المائدة: 64)، (يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) (المائدة: 62) (يُجْرِفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) (المائدة: 13)، (سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْلُونَ لِّلْسُحْتِ) (المائدة: 42) (وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُجْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) (المائدة: 41)، (أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا

³ وقد كان الدكتور قدري حفي في محاضراته لنا في الماجستير يتبنى ذات الفكرة. وهو ممن عنوا بدراسة اليهود.

⁴ التفاصيل في كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي وقد سرد تاريخهم في الشام وهجرتهم للجزيرة العربية وأماكن

انتشارهم ثم عقد فصلاً بعنوان: "الفصل السابع والسبعون: اليهود والإسلام"، وهو المراد الإشارة إليه هنا. ط. دار الساقى، ج 12،

عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (البقرة: 100)، (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا
الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) (المائدة: 84). ما يعني أنها صفات دائمة في الشخصية اليهودية، وهذا يعرض عن
حديث القرآن عنهم ويعتمد على نظرة مادية في التفسير.

ولفرط تأثر المسيري بمقولة ابن خلدون (حتمية البيئة في التأثير) نجده يستدل باختلاف اللغة والحالة المادية
والعدد على اختلاف البنية والأهداف في الشخصية اليهودية. والواقع أن اليهود يحافظون على هويتهم بدليل
بقاؤهم يهود لآن وعدم انصهارهم في آتون الدولة القومية، ولا زالوا إلى اليوم يعرّفون أنفسهم كيهود كما
فعلت المرأة التي اشعلت عزمته لكتابة الموسعة وكما فعل أحد أكبر رؤوس العلمانيين اليهود في مذكراته⁵.
وبدهي أن الصفات العامة لا تنطبق بالضرورة على جميع الأفراد، وفي القرآن الكريم (وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ
إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ. وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٥) (آل عمران: 75)، وحين
نتحدث عن جماعة من الناس تحت أي مسمى فنحن نتحدث عن الصفة الغالبة ولا يُحتج بأفراد أو
جماعات صغيرة، وذلك أن الفرد يتكيف حسب الموقف في تعاملاته الفردية؛ كما أن ظهور صفات خاصة
على جماعة في دولة (يهود ألمانيا ويهود بريطانيا ويهود الولايات المتحدة، ويهود أثيوبيا... كما يذكر هو)،
يخضع للإمكانات التي تتاح لهم، ولا يعني هذا اختلاف الانتماء العام، تمامًا كالأفراد في البيئة الواحدة هذا
تاجر وهذا طبيب وهذا مهندس، وهذا ميسور، وهذا فقير، وكلهم ينتمون لانتماء واحد جغرافي، أو ديني،
أو طائفي، أو مذهبي.. إلخ.

والقول بأن أوروبا أرادت أن تتخلص من اليهود قول قاصر عن تفسير ما حدث ويحدث، فالواقع أن أكثر
اليهود لا زالوا في أوروبا والولايات المتحدة، ولو كان الهدف هو التخلص منهم لفعّلوا كما فعل هتلر بهم، أو
كما فعلوا هم بالهنود الحمر، أو كما فعلوا هم بالكنيسة والإقطاعيين فقد سلبوا هؤلاء قوتهم مع أنهم كانوا
أشد بأسًا من عصابات يهود.

⁵ أعني شمعون بيريز في مذكراته (الشرق الأوسط الجديد)

البعد عن الوحي كتاباً وسنة:

لا تكاد تجد المسيري يستشهد بآية أو حديث، اللهم مرة أو مرتين يحاول ولا يستطيع. وعامة ما يقدمه مقولات نقدية من سياق النقد الغربي للحدائثة (المادية/ الإلحاد الصلب). وكأنه إيمان عقلي، ولا أدري كيف استطاع أن يتجاهل هذا الكم الكبير من الحديث عن اليهود في كتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم!!!

وهنا نقطة محورية، وهي أن الوحي (كتاباً وسنة) مهيمن على غيره، أو أننا نمتلك نموذجاً معيارياً نطلق منه ونرجع إليه حين يشبه علينا الأمر، أو حين نختلف، وهذا النموذج المعياري هو نص القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية كما فهمها الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصحابته، رضوان الله عليهم، (النموذج العملي القياسي للوحي)، يقول الله تعالى ذكره: ﴿فَإِنَّ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾⁽⁶⁾، و"معناه فإن آمنوا بجميع ما آمنتم به أي أتوا بإيمان كما إيمانكم وتوحيد كتوحيدكم"،⁽⁷⁾، والخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمتة"⁽⁸⁾. ويقول الله تعالى ذكره: ﴿وَالسَّيْقُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾⁽⁹⁾، والمقصود بمن اتبعوهم بإحسان "من بقي من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة"⁽¹⁰⁾. والقرآن الكريم واضح بيّن في نفسه ومبين لغيره ولذا أمرنا بتحكيمة حال الخلاف ففي القرآن الكريم تفصيل كل شيء. يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾⁽¹¹⁾، ويقول الله

(6) سورة البقرة: آية ١٣٧.

(7) ينظر "معالم التنزيل" للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، (بيروت، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1417هـ/1997م)، ج1، ص156.

(8) ينظر: "الجامع لأحكام القرآن" للإمام محمد بن أحمد القرطبي، (القاهرة، دار الكتب المصرية، 1384هـ/1964م)، ج2، ص142.

(9) سورة التوبة: آية ١٠٠.

(10) ينظر: "جامع البيان في تأويل القرآن" للإمام محمد بن جرير الطبري، (بيروت، الرسالة، 1420هـ/2000م)، ج23، ص373.

(11) سورة الحج: آية ١٦.

تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾⁽¹²⁾، ويقول الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾⁽¹³⁾، ويقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾¹⁴ "يقول: نزل عليك يا محمد هذا القرآن بيانا لكل ما بالناس إليه الحاجة من معرفة الحلال والحرام، والثواب والعقاب"⁽¹⁵⁾ ففي القرآن الكريم "تبيان كل شيء من أمور الدين بالنص والدلالة، فما من حادثة جليلة ولا دقيقة إلا والله فيها حكم قد بينه في الكتاب نصا أو دليلا"⁽¹⁶⁾ ومثله قول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾⁽¹⁷⁾

إن الوحي، بتطبيقه العملي في هذه التجربة الربانية التي ظهرت على صفحات الأيام ودونت بأدق تفاصيلها، هو منطلقنا وهو آخيتنا. فكلما نزلت نازلة تأملناها جيدا ثم رجعنا لنموذجنا الأول نستضيء بنوره ﴿فَقَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْتُمُوا الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾⁽¹⁸⁾. أقول، في نفسي،: لو أنه فتح المصحف وراح يتدبر ما أنزل الله من الكتاب والحكمة (السنة)، لشفي صدره في ساعات قليلة، ولربما جلس في ظلال القرآن الكريم كما جلس سيد قطب ومصطفى محمود والشعراوي، وكل من الثلاثة كان في التيه كما قد كان هو!

قضايا خارج سياق الزمان والمكان.

تحول المسيري من المادية الماركسية إلى السياق الإسلامي عن طريق النقد للظواهر والأفكار العلمانية وخاصة المادية الماركسية، وتوافق، بقصد أو بدون قصد، مع المدارس النقدية الحديثة في الحضارة الغربية، وعُني

(12) سورة النور: آية ٤٦.

(13) سورة البقرة: آية ٢١٣.

¹⁴ سورة النحل: آية ٨٩.

(15) ينظر: "جامع البيان في تأويل القرآن"، للإمام محمد بن جرير الطبري، مرجع سابق، ج 14، ص 333.

(16) ينظر: "أحكام القرآن" لأحمد بن علي الجصاص، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1415هـ/1994م)، ج 3، ص 246. وقد ذكر الإمام الجصاص في ذات السياق بيانا لكون السنة وحيا أيضا ومرتبطة بالقرآن الكريم (وما آتاكم الرسول فخذوه) وكذلك مرجعية باقي مصادر الاستدلال المنصوص عليها في أصول الفقه للكتاب والسنة.

(17) سورة الإسراء: من الآية ١٢.

بتفسير ظهوره اليهود في السياسة الدولية وتجمع عامتهم حول بيت المقدس؛ وأهم ما يمكن رصده في سياق المسيري هو تبنيه لقضايا وهمية شغلنا ولم تنفعنا بل نفعت الغرب، فقد أشعل حربًا على المادية الغربية.. الإلحاد التام، أو الإلحاد الصلب.. هذا الذي لا يؤمن بإله ولا بغيبات عمومًا، مع أن هذا النوع من الإلحاد هُزم من عقود في الغرب. هذا النوع من الإلحاد أصبح ماضيًا، وظهر على أنقاده البعد القيمي في الحضارة الغربية. كما أن هذا النوع من الإلحاد، حين كان منتشرًا، لم يستطع أن يتمكن في المجتمعات المسلمة، وظلّ في صدر عددٍ قليل من غلاة الشيوعيين.. وظلّ منبوذًا من عوام المسلمين قبل خواصهم، فلم يتفاعل المسلمون مع الشيوعية إلا في البعد الاجتماعي وسرعان ما فارقوها حين ظهرت الأبعاد الإلحادية للماركسية المادية¹⁸. ومع أننا لا نواجه إلحادًا صلبًا كالذي تحدثت به الماركسية وإنما نواجه إلحادًا "مؤمنًا"، فالمحدد عندنا من المنتسبين للديانات الإبراهيمية، ويتجمع كثير منهم تحت شعار "مؤمنون بلا حدود". ولذا تجد هؤلاء الملحدون يستشهدون بالمسيري ويثنون عليه خيرًا، وفي هذا السياق نقلَ المسيري مخرجات علي عزت بيجوفيتش وأعاد توطينه عندنا، وعزت بيغوفيتش خاض معركة مستحقة في وقته مع المادية الغربية ولكنها معركة انتهت. ومعركة ليس لها سياق عندنا.

وكذلك القضية الثانية التي عني بها وهي تلك التي تتعلق باليهود في السياسة الدولية وفي فلسطين خاصة، نزع عنها الصبغة الدينية وقدمها في هيئة صراع سياسي مغلف بالحماس والجماهيرية، فمن ناحية قاوم اليهود ومن ناحية خدمهم وخدم العلمانيين بإخراج البعد الديني من الصراع!!

أحاول- من خلال مناقشة أفكار المسيري- وضع يدي على شيء أراه مهمًا ومنتشرًا وخاصة عند مشاهير النخبة، وهو تبني قضايا خارج سياق الزمان والمكان، قضايا تستهلك قدرات الناس مع قليل من الفائدة. وهي حالة من الاغتراب أو الهروب تحت ضغط الواقع. وهذا الهروب يمارسه كثيرون وليس

¹⁸ امتازت الشيوعية بكثرة التفرعات فيها، حتى في عصر مؤسسها، وفي الوطن العربي ظهرت اشتراكية عربية عنيت بالجانب الاجتماعي وتجاهلت، بنسبة كبيرة، الجوانب العقديّة للشيوعية الماركسية، ثم حدثت حالة من التحول إلى الإسلام بين من تأثروا بالفكر الشيوعي كالأستاذ عادل حسين ورفاقه في صحيفة الشعب، وذلك حين درسوا الإسلام وعلموا أن تحقيق العدالة الاجتماعية من مبادئ الإسلام أفضل. (ذكر ذلك لي روية عن الأستاذ عادل حسين الدكتور محمد عباس).

فقط المسيري، فمثلاً: السلفيون مع "التشيع/الرفض". حين تتأمل في سياق تعاطي السلفيين مع الرفض تجد أن كثيراً مما يقولون يمكن أن نضعه في خانة الهروب.. أو البحث عن موضوع بعيداً عن حر السياسة والتصدي للاستبداد، أو بعيداً عن مواجهة العوام بما هم فيه من فسق وتخلف، وإن تأثير العوام (الجماهير) كتأثير السلطة أو يكاد فالحرص على الوجاهة والتصدر والنفع المادي أشد من الحرص على السلامة والأمن الشخصي؛ وبعضهم لا يستطيع أن يصمت وينصرف إلى مصحفه وأذكاره والاعتناء بأهل بيته.. ولذا يتجه لما هو آمن سلطوياً وجماهيرياً بحثاً عن ذاته أو رضاً بما هو أدنى. لذا فإن عامة القضايا النائرة اليوم تجدها هنا.. تحت مظلة الأمن السلطوي والجماهيري، لا تحت مظلة ما ينبغي فعله نصرة للدين وتمكيناً للمستضعفين. وتكون المحصلة إضاعة الجهد والوقت والدخول في حسابات القوي (التوظيف وخاصة من أصحاب المال وأصحاب السلطة).

ومن الأمثلة، أيضاً: اهتمام السلفيون الزائد ببعض الشعائر في الثياب ونحوه. ومن الأمثلة، أيضاً: انتشار الحديث في "التدبر" والاهتمام بالتحفيظ. فبعض ذلك هروب واغتراب، تماماً كما التعاطي مع الرفض وقضايا التعبد الفرعية. والحمد لله أن الناس تفر لكتاب الله، وبارك الله لكل من شغل بكتاب الله تلاوة وتدبراً، وحفظاً وتحفيظاً. ولكني أرصد حركة الفكر والاهتمامات. والمقصود أن عملية الهروب من الواقع وتضخيم بعض القضايا عن حجمها الحقيقي ومحاوله إثبات الذات أو إنفاق فائض الوقت في شيء قليل الفائدة كثير ومنتشر، وهو من مظاهر قلة البركة في الأوقات والأعمار. ومن أهم أسباب هذه الظاهرة غياب البعد التعبدي، فلو أن أحدنا علم أنه إما أن يقدم نافعاً أو يرجع لمصحفه ومسجده يناجي ربه ويصلح من شأن نفسه لارتحنا من كثير ممن لا ينفع، فالكل اليوم مشغول وحين تفتش تجد أن الخير في أن يكف عما يشغله.

المعركة مع اليهود:

سوّق الدكتور المسيري أفكاره التي يفصل فيها اليهود عن اليهودية والصهيونية وهذه المقولات التي تؤدي إلى تفسير علماني لظهور (علو) اليهود عالمياً وتمكنهم من بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، على أنها تساعد في التخلص من الهزيمة النفسية التي لحقت المسلمين، وعلى أنه يسعى لتبديد الاعتذارات (الديباجات) التي

يقدمها المنهزمون أمام الكيان الصهيوني، أولئك الذين ينشرون "بروتوكولات حكماء صهيون" ويزعمون أنهم أمام عدو لا يقهر.. عدو يتحكم في العالم ويفعل ما يشاء. يقول أن الهدف من أطروحاته هو رد هؤلاء الذين يعتقدون أن اليهود يفعلون ما يشاءون!

ولا أدري عن يتحدث الدكتور عبد الوهاب، فهذا الخصم الذي يستهدفه غير موجود عملياً، أو منزوي لا يكاد يرى، فالواقع أن المصريين هزموا يهود في الاستنزاف وفي أوائل حرب أكتوبر 1973م، وانتصر عليهم أهل الأردن وفلسطين في معركة الكرامة وانتصر عليهم من قاتلهم من السوريين في بداية حرب 1967م وحرب 1973 وانتصر عليهم من قاتلهم من لبنان، وانتصر عليهم رجال "حماس"، ولم يحجم أحد عن قتالهم بدعوى أنهم خارقون للعادة، لم تسوق البروتوكولات بهذه الدعاوى مطلقاً، وإنما انتشرت تحت مظلة الحديث عن العلو الثاني لليهود وأن هزيمتهم قادمة على يد عباد الله يقاتلونهم حتى يختبئون خلف الشجر والحجر فينطق الشجر والحجر ويدل على من اختبأ خلفه من اليهود، وهي بشارة وليست تقاعد. إن الدكتور المسيري، كالعادة، يفتعل قضية وهمية وبضخمتها.

أدوات الانتشار.

وجد المسيري مساحة لأنه توسط في أفكاره ومواقفه بين الصحوة الإسلامية والعلمانية. والناس بطبيعتها تميل لمن يتوسط بين متصارعين. ووجد المسيري مساحةً لأنه تبنى أم القضايا الثائرة (المقاومة الفلسطينية واحتلال بيت المقدس) وهي قضية جماهيرية، مثلت أحد أهم أدوات جذب الجماهير حتى عند الذين يقاتلون الداخل الإسلامي؛ ووجد مساحة لأنه استخدم لغة سهلة مليئة بالبشارة، فقد كان يبشر بزوال الكيان الصهيوني كما زال الكيان الغربي في جنوب أفريقيا، والناس يميلون لمن يبشرهم وإن كان يخالف الحقيقة، وذلك أن قلة قليلة من العقلاء هي التي تنظر في المآلات.

ومن أسباب الانتشار أنه وقف وسطاً بين الدولة والمعارضين لها، فمن ناحية ارتبط بمؤسسات الدولة وكتب في أشهر صحفها (الأهرام)، ومن ناحية أخرى شارك المعارضة في بعض تحركاتها.

ومن أسباب الانتشار ظهور إعلام خلط الأوراق في الساحة العربية، وهذا النوع من الإعلام أعطى مساحة

للمعارضين للنظم المستبدة والكيان الصهيوني كالمسيري.

ومن أهم أسباب الانتشار: أن أطروحات المسيري عن وجود ثلاثة ظواهر مختلفة (يهود، ويهودية، وصهيونية) والدعوة لفصل اليهود عن الصهيونية وعن اليهودية نفسها، والدعوة للتعامل معهم على أنهم بشر في الوقت الذي يواجهون مقاومة متدنية (حماس، وأחותها وحزب الله في لبنان) مثلت دعمًا - بشكلٍ ما - لليهود ومن يناصرهم، فقد كانت أطروحة المسيري تعني بدهاء نزع الصبغة الدينية عن الصراع مع يهود. وهذا أكثر ما يزعجهم.

الفائدة في التفاصيل:

مما يظهر لي بوضوح بعد التأمل في أطروحات نخبة المثقفين.. أولئك الذين يقدمون أطروحات فلسفية تُعنى بالتأسيس (التأطير النظري)، مثل ديورانت، وتويني، وابن خلدون، ويلحق بهم بعض المعاصرين من أمثال عبد الوهاب المسيري وعباس العقاد وجمال حمدان، أنهم يقدمون فائدة في التفاصيل وانحراف في السياق العام.

فمثلاً ديورانت في السياق العام يتكئ على مقولة ابن خلدون "حتمية البيئة" أو ارتباط الوحي بالزمان والمكان الذي ظهر فيه، أو أن محمدًا، صلى الله عليه وسلم، ابن بيئته، وأن البعثة المحمدية مجهود ذاتي من شخص الرسول، صلى الله عليه وسلم، وفي التفاصيل يمتدح النبي، صلى الله عليه وسلم، ويثني عليه. فمن يتعامل مع التفاصيل دون السياق العام يظن الرجل منصفًا يثني على الرسول، صلى الله عليه وسلم، ولكنه في الحقيقة يحاول نزع صفة الرسالة عنه، صلى الله عليه وسلم. ومثله عباس العقاد: يقدم الرسول، صلى الله عليه وسلم، على أنه عبقرى لا كرسولٍ من الله، والله يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾. وفي التفاصيل تجد ثناءً عطرًا على شخص الرسول، صلى الله عليه وسلم، كعبقرى.. لا كرسول من الله!

وكذلك المسيري في السياق العام يخوض معركة وهمية ضد المادية الغربية الصلبة والتي انحصرت وكادت تنتهي، وما يمارسه من نقد هو سياق غربي تولد في السبعينات مع ظهور المدرسة الإنجليزية ونشاط المدرسة

النقدية (الفرانكفونية). كانت معركة مستحقة يوم كان الغرب لا يعرف إلا المادية البحتة.. كانت معركة مستحقة قبل أربعين عامًا.. يوم انتصب في وجههم بيجوفيتش أما الآن فالصراع مع النسبية التي بشر هو بها. وأعتقد أنه يعي ذلك تمامًا ويأتيه من وقتٍ لآخر، وربما يحاول الانتفاص من الغرب وتنفير الناس منه بما يستطيع التحدث فيه. رحمه الله رحمة واسعة.

وكذلك جمال حمدان في التفاصيل والصيغة فوائده، ولكنه في السياق يضخم الذات المصرية. وإذا سلمنا للدكتور حمدان بعقريّة المكان المصري على المكان اليمني والصومالي وآسيا الوسطى، فإننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن أن مصر دولة قومية، تعاني (كدولة قومية) من عددٍ من المشاكل المزمنة، مثل: التعددية الإثنية، والدينية، والطائفية؛ وكثرة الإنفاق على بعض المجالات دون بعضها (الأمن، الترفيه: فن كورة،،،)، **والضعف وعدم القدرة على الفعل** أو عدم القدرة على حل المشاكل الداخلية، وذلك بسبب التجزئة، وقلة الموارد، أو كثرتها¹⁹؛ وتغول السلطة، والتماهي بين نظام الحكم ومؤسسات الدولة، حيث لا يوجد مسافة بين النخبة الحاكمة ومؤسسات الدولة، والذي أدى إلى تهميش المجتمع المدني.

من يخاطب المسيري ورفاقه؟

قدّم الدكتور علي جمعة إجابة مباشرة على هذا السؤال في أحد الندوات الثقافية التي جمعته بالدكتور المسيري فقال: "ما يقدمه المسيري نقد للمنظومة الغربية من داخل المنظومة الغربية ولصالح المنظومة الغربية"²⁰. وهذا الوصف دقيق جدًا، فالدكتور المسيري نبت داخل السياق الغربي ضد بعضه لصالح بعضه الآخر.. واكب فترة انحسار السلوكية (التحليل الإميريقي) وظهور المنظورات ذات الأبعاد القيمية داخل الغرب (المدرسة الإنجليزية، والبنائية، وتمدد المدرسة النقدية [الفرانكفونية الألمانية])، وعمامة أفكار المسيري تطوير (أو إعادة تصنيع) لأفكار النقديين من الغربيين كما يذكر هو. والنقد داخل المنظومة الغربية شيء طبيعي. بل مفيد لهم. وذلك أن النقد أحد أهم أدوات تطوير الواقع والإفادة منه وليس هدمًا كما نفسره نحن، وما بعد الحداثة (النسبية) ترحب بكل من ينتقد وتفسح له مجالًا حتى ولو كان يتحدث من (منظور حضاري إسلامي) فهي تستوعبه، بل ترحب

¹⁹ تشكل كثرة الموارد عائقًا حين لا يكون لدى الدولة قدرة على الحفاظ عليها: ليبيا (ساحل ممتد وعدد سكان قليل)، وقطر (عوائد البترول والغاز).
²⁰ ينظر: <https://www.youtube.com/watch?v=Gvj4Ne0iSC8>، والدكتور وائل حلاق، في أحد لقاءاته التلفزيونية، بفرق بين النقد والانتقاد، فالنقد عنده هدم كلي وإحلال جديد، والانتقاد تطوير عن طريق ذكر السليبيات من أجل إصلاحها.

به وتضعه-مع غيره- في حُلِيها الذي تترزين به لترسم مشهداً فوضوياً يشارك فيه الجميع ويتحرك لأهداف الماديين!!

وأيضاً ثمة ملاحظة أخرى شديدة الأهمية، خلاصتها أن النقد عند الغربيين أحد أدوات تطوير الواقع. أو أحد أدوات التعامل مع تحديات الواقع، لذا يرحبون به. فالنقد أداة تطوير وليس أداة هدم، وهو كذلك طالما يعمل داخل إطار المنظومة. ولذا نجد أجيالاً من الجدالات بين المنظورات الكبرى في الغرب.. حين يتغير الواقع يتجهون لنقد المنظورات القديمة وما انبثق عنها من نظريات تفسيرية وتطبيقات عملية ويستحدثون غيرها مواكبةً للواقع الجديد. فهم ينقدون أنفسهم للتصحيح، أو للهدم وإعادة البناء. ولذا ينخدع نفر من المعارضين لهم بما يصدر من بعض المفكرين الغربيين عن خلل في دولةٍ ما أو عن قرب أفول الحضارة الغربية؛ وغالبًا ما تستهدف هذه الأطروحات دلالة السياسيين والتنفيذيين على مواطن الخلل من أجل التصحيح. ولك أن تلاحظ انتشار الكتابات التي تبشر بأفول الحضارة الغربية وفي ذات الوقت نجد أنهم يجتاحون العالم شرقًا بثقافتهم وشركاتهم وجيوشهم، وبالفعل هضموا أمما بأكملها، وحتى مجتمعاتنا المسلمة تتطور في اتجاه غربي.. في اتجاه انحلال خلقي وديني كما هو حالهم.

إن العالم كله يتحرك بعنف في اتجاه معاكس للإيمان ويدفع الذين بداخله دفعًا إلى حيث لا يعلمون، ولن يتوقف هذا التطور المنفلت إلا بالمؤمنين بالله وما أنزل على رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

التوسط بين العلمانية والصحة:

استخدمت بعض أفكار الدكتور عبد الوهاب ورفاقه في مد الجسور بين العلمانية والصحة الإسلامية، تحديدًا أطروحة (العلمانية الجزئية). وهذا توضيح بما يناسب المقام:

يستهدف الخطاب العلماني دفع الحالة الصحوية في اتجاه قبول العلمانية، ويسمون هذا النوع من الخطاب بالخطاب الإصلاحية؛ ومن أهم العقبات التي تواجههم: عدم التفات الصحويين لهذا الخطاب، لا بالاطلاع ولا بالنقد والتحليل فضلًا عن القبول، فالحالة الصحوية مغلقة وتمتد فكريًا وعدديًا من الداخل للخارج؛ والتحويلات والتغيرات التي تحدث فيها تأتي من الداخل.. ينصتون لأبنائهم ولن تخلى عن العلمانية والتزم درب الصحة كسيد قطب، وأما أولئك الذين لا ينتسبون إليهم فيرتابون منهم ويهاجمون أشخاصهم، ويعرضون عن

بضاعتهم، ويتهمون من ينصت إليهم بالابتداع. نعم تعمل العوامل الخارجية (مثل: أسئلة العلمانية، والقمع الأمني، والفرص التي يفرها النظام الإقليمي والدولي) كمحفز، أو كمثير، ولكنها لا تعمل أبداً كدافع أو كمتغير مستقل في التحولات والتغيرات التي تحدث للصحة.. يظل الخطاب الداخلي هو الفاعل الأساسي.

وتتعامل الصحة مع أسئلة العلمانية (كالمواطنة، والتشريع من خلال مجالس نيابية، وتناوب السلطة... إلخ)، برجماتياً، بمعنى أنها تجيب حسب وضعها على الأرض قوةً أو ضعفاً، وحسب حاجتها لأدوات العلمانية.

وتتجاوب، فقط، مع الأدوات (مثل المشاركة في المجالس النيابية، والمجالس المحلية، والنقابات... إلخ) لا القيم والفلسفات التي تقوم عليها هذه الأدوات. ولذا يظهر ازدواجية في الخطاب. فمثلاً: تتحدث عن الديمقراطية بخير في المحافل العامة وتلعنها في بيتها حال حديثها مع أبنائها. وتتحدث عن الوطن والوطنية بخير في المجال العام وبين أبنائها تقول بقول رها: (أمتكم أمة واحدة)، أو تبتدع دليلاً مثل القول بأن الإسلام عرّف الدولة المستقلة ضمن إطار الأمة. ومن يقل منهم بهذا يعلم قبل غيره أن الدولة القومية لا هي من الدين ولا من التاريخ وإنما أداة علمانية نشأت حديثاً، والدولة القومية لها شريعتها الخاصة والتي تتحكم في كل شيء، ولها منظومة ثواب وعقاب خاصة، ولا ترضى بغيرها شريكاً لها بل تابعاً منزوياً في ركن من أركان الحياة، ويوماً بعد يوم تدخل عليه وتأخذ بعضاً مما في يديه، وتظل هكذا إلى أن يتحول مخالفها إلى كيانٍ ضعيفٍ تابعٍ يتحرك بحركتها، والدولة التي ظهرت في الإسلام لم تتجاوز حد استيلاء بعض الأشخاص على الحكم في بعض الأماكن دون إحداث تغيير جوهري في نظام الحكم.

وفي الفجوة بين الصحة والعلمانية تقف العلمانية الجزئية التي تحدث عنها الدكتور عبد الوهاب²¹. ومؤخراً ظهرت أوراق بحثية تدعو إلى تفعيل أطروحة العلمانية الجزئية من أجل تطوير الخطاب الصحوي، بمعنى جذب الحالة الصحوية للعلمانية عن طريق قنطرة "العلمانية الجزئية"، أو للمنطقة الوسط التي يقف فيها إصلاحيو الأزهر وإسلامية المعرفة وما اتصل بهما، كمرحلة وسيطة لتطوير الفكر الإسلامي إلى السياق العلماني تحت

²¹ تتوافق أطروحة العلمانية الجزئية بشكل كبير مع أطروحات الإصلاحيين في الأزهر الشريف. وأفضل ما يمثل هذه الأطروحات كتاب الإسلام شريعة وعقيدة للشيخ محمود شلتوت.

مسمى "التجديد" أو "العصرنة" أو "إعادة بناء العقل العربي"، أو "حتمية الواقع". وهذا سياق يزداد يوماً بعد يوم، وقد يتحول إلى تيار بفعل الروافد الكثيرة التي تصب فيه. وهو السياق الذي جمع بين الضدين مثل الدكتور محمد عمارة، ويوسف زيدان، يقول: لم يكن على الهيئة التي تحدث عنه بها السلفيون²².

المشاركة في بعض الموافقات الفكرية مع الآخر:

ظهر أثر التوسط بين العلمانية والإسلام في المشاركة في عدد من الموافقات الفكرية، وأستحضر ثلاثة أمثلة:

المثال الأول: ادعاء أن القيمة العليا في الإسلام هي العدل. والعدل مفهوم نسبي، فكل يرى نفسه عادلاً، حتى جبابرة اليوم، أولئك الذين ينشرون الشر والحراب بأسلحتهم، وبضائعهم، وثقافتهم. يرى هؤلاء أنفسهم أهل عدل ودعاة محبة وسلام.

والقيمة العليا عندنا هي عبادة الله وحده لا شريك له، وتعبيد الناس له، يقول الله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات:56) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)(الأنبياء:25)، وباقي القيم أثر من آثار التوحيد.. ثمرة من ثمراته. فنحن نعطي الناس حقهم لأن الله أمرنا بهذا ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٨٥)، ونفعل هذا طلباً للأجر من الله. نرجو ما أعد الله من ثواب للطائعين ونخشى ما توعد به العاصين من عذاب الجحيم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾^(١٥)(الروم:15).

والمثال الثاني: القول بأهمية العمران (البناء والتشييد)، أو أن الله استخلف الإنسان في الأرض من أجل عمارتها، ويفسرون العمارة بالبنيان. وهنا أمور:

منها: دليلهم الذي يستدلون به، و هو قول الله تعالى: "إن جاعل في الأرض خليفة"، ثم يفسرون الخلافة بعمارة الأرض، ثم يفسرون الخلافة بمعنى التعمير بالبنيان ونحوه ويستدلون بقول الله تعالى: "هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا"؛ مع أن ذات الآية تبين أن الخلافة لا تعني التعمير فقط بل الفساد وسفك الدماء (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء). ولا يأتون بالآية كاملة فقد سبقت هذه الجملة الشريفة بالأمر بعبادة الله وتلاها أمر آخر بالاستغفار والعودة إلى الله، "وَإِلَىٰ مُؤَدِّ أَهْلِهِمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ

²² ظهر مدافعاً عن شيخ الإسلام بن تيمية في أحد البرامج (رفقة عمرو أديب).

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۗ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ"، وعلى لسان ذات النبي الكريم، صالح عليه السلام، ذم النبيان ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا قَرْهَيْنَ﴾ (الشعراء: 149)، وكذا ذم النبيان على لسان هود عليه السلام ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ (الشعراء: 128-129)، وثبت مثل هذا (ذم النبيان) عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في أحاديث كثيرة. فالخلافة لا تعني تعمير الأرض بإنشاء المدن والتطور في النبيان. ومنها: أن جعل العمران هدفاً أمر حادث لم تعرفه البشرية من قبل، والذي جلبه إلى ساحتنا هو جمال الدين "الأفغاني" كما يروي ألبرت حوراني في كتابه تاريخ الفكر العربي؛ فلم تكن البشرية تهتم بالعمران كقيمة في حد ذاته إلا بعد ظهور العلمانية الرأسمالية، فكل حضارة لها ما تعظمه من قيم، وقد كان أهل الجاهلية يعظمون الكرم والمروءة والشجاعة، ثم جاء الإسلام وعظم التقوى، ثم جاءت العلمانية الملحدة وعظمت الاستهلاك، ووطنته في كل شيء، ودخلت علينا هذه القيمة بعد أن غلبونا وخالطونا. ومنها: أن العمران اليوم أحد أدوات السيطرة والتوجيه، ويصعب قراءة النشاط العمراني (بمعناه الواسع) في إطار تحقيق رفاهية الإنسان.. كل الإنسان، وإنما أحد أدوات الاستحواذ على أسباب السيطرة والنفوذ من قبل النخب الحاكمة!

ومنها: أن العمران.. أي عمران ما هو إلا ترجمة للقيم التي أنتجته. فطريقة البناء تخضع للمفاهيم والتصورات من ناحية وتدعمها من ناحية أخرى. فالمفترض أننا نشيد (نبي) على الأرض ما نستعين به على عبادة الله.. فالمساجد وشكل البيوت (مفتوحة للخارج أم للداخل) ومكان السوق، إلخ. وإن تصدير الاستخلاف من أجل البناء كمفهوم محوري في جوهره التقاء مع القوي السائد في منطقة مشتركة وهروب من حالة المواجهة الفكرية الحقيقية التي تعلن توحيد الله والكفر بما سواه كمنطلق وغاية.

والمثال الثالث: القول بتقديم المقاصد على الأحكام. وهي من المحدثات في الدين، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة. بدأت هذه البدعة مع محمد عبده حين استخرج كتابات الإمام الشاطبي (الموافقات) ليقول بالمقاصد ويكسر الجمود السائد في الحالة الدينية الرسمية يومها؛ ثم تطورت الفكرة من بعده في اتجاه سلمي. وذلك أنهم تبنوا مقاصد فضفاضة شديدة المرونة ومجملة لا تفصيل فيها، وتتوافق مع القيم الإنسانية العلمانية

التي توافق على أغلبها أهل الكفر. وراحوا يتحدثون بأن هذه المقاصد تضبط الأحكام (كأنها قواعد فقهية كلية).

هذا قولهم، ومن يتدبر يجد أن المقاصد تُؤخذ من الأحكام وليس العكس كما يفعل هؤلاء الأفاضل. فمثلاً: نقرأ أحكام الشريعة في الزنا وما اتصل به، (الملاعنة، الجلد، والرجم) ثم نقول: مقصد الشارع في حدِّ الزنا هو الستر لا فضح الناس وهتك أسرارهم. ونقرأ الحدود ثم نقول: مقصد الشرع من الحدود هو زجر الناس وصرفهم عن الشر ودفعهم إلى السعي فيما ينفعهم ولا يضر غيرهم. أما ما يفعله المقاصديون الآن في حقيقته عبارة عن محاولة لجرجرة الشريعة في وادي العلمانية.. إلى ساحة الدين الجديد (دين الإنسانية) الذي يتكون من أخلاطٍ شتى بعضها إسلامي!!؛ فهم يقولون: المقاصد، ثم يتحدثون عن كليات عقلية مطاطة تلتقي مع كليات العلمانية الغربية أو تكاد، ثم ينقلون إلى الأحكام ويحاولون تعديلها في ضوء هذه المقاصد الفضفاضة!!

شروط النهضة عند المسيحي والمتحمسين!

كثيراً ما كان الدكتور عبد الوهاب المسيحي يردد بأننا لا نستطيع أن نهض كالعرب إلا إذا مررنا بمرحلة احتلال لغيرنا من الشعوب.. كما فعلوا هم. يشير إلى أن الغرب نهضَ على أكتاف غيره من الشعوب التي احتلها ونهب ما فيها من ثروات معدنية وبشرية. وأخذ بعضهم هذا المعنى فقال بأن "العرب لم يتقدم بمحض الذكاء وتطور الزراعة والصناعة. بل تقدم بالحروب والسلاح وامتصاص الثروات ونهب الشعوب". والمعنى المتبادر للذهن أن لا تطور بدون حرب.. أن العمل المسلح (أو الثوري العنيف) ضد السلطة والمجتمع ضرورة للنهوض!!

وحين تدقق النظر في حال الغرب (أوروبا، ثم الولايات المتحدة) تجد أنهم نهضوا بأربعة وليس بواحدةٍ

كما يدعي الدكتور عبد الوهاب والمتحمسين:

أولها: وجود رؤية خاصة بهم. تأسست على العداة للدين. ربما لأنهم واجهوا غزاة (العثمانيين) ولم يواجهوا فاتحين كما حدث في الأندلس.

وثانيها: حصولهم على أسباب مادية من خلال غزو دول أمريكا الجنوبية أولاً ثم زكبوهم البحر والاتجار مع

الهند وغيرها (العصر الميركانتي)، ثم احتلال العالم الإسلامي والسيطرة على موارده وأسواقه، وهذه التي يعينها الدكتور المسيري، وهي فقرة تابعة وجزء من منظومة صعودهم وتمكنهم، وليست وحدها، ولا تصلح لتقدمنا فحن أمة رحمة، نقدم للناس أخلاقاً، والقتال عندنا لا يصحبه نهب بل نزع الحقوق من المستبدين ونعطيها لأهل الأرض.. يوزع المال في أهل المكان.

وثالثها: انهيار منظومة القيم الإسلامية، ثم تبدلها. وهذا من أهم العوامل في تخلفنا واستمرار تفوقهم، فقد جاءوا إلينا ونحن معدومين مادياً وفكرياً، ثم عمدوا إلى إحداث تحولات جذرية في منظومتنا الفكرية حتى صارت تبعاً لهم، ولذا تجد بين المنتسبين للفكر الإسلامي من يطالب بنهوض كنهوض الغرب، بل تجد من المنتسبين للصحة الإسلامية من ينتصر للمناهج الغربية ويرى أن الديمقراطية هي نهاية التاريخ.. يرى أن البشرية تتطور منذ خلقت في خط مستقيم صاعد، وأن ما عليه الغرب الآن هو الرشد!!

وكان الله لم يقم السموات والأرض على الإيمان والكفر، وكان الله لم يهلك السابقين بكفرهم بالله، وكان الذين سادوا اليوم أشد قوة من الذين كانوا من قبلهم، وكأنهم سبقوا. والله يقول: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا) (فاطر: 44). ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ (التوبة: 69).

ورابعها: القتال الداخلي بين المسلمين، وذلك منذ ظهور الصفويين في إيران، والمماليك في مصر، والعثمانيون في آسيا الوسطى، حيث ظهرت قوى إسلامية تقاتل بعضها وتستعين بالآخر على بعضها، وقد أدى ذلك إلى استنزاف طاقة المسلمين من ناحية وإلى التوقف عن الفتوحات من ناحية أخرى.

ولذا فإن علينا أن نبحث عن إجابة لهذا السؤال: هل نسير في اتجاه استعادة نموذجنا الحضاري أم ننافسهم على ما في أيديهم!!؟

وفتش عن إجابة من الأفعال لا من الأقوال. وسترى بوضوح أن النخبة الفكرية (المثقفة) .. ستجد أن النخبة "الثورية/ المتحمسين" تنافس الغرب على ما في يديه، ويأخذها بين يديه ويسير بها إلى حيث يريد، وإن كانت تعارضه بلسانها!!

محمد جلال القصاص